الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية لقرى جبل حوران في العصر الروماني من خلال المعطيات الأثرية ■

فرانسوا ڤيلنوڤ

المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى بدمشق

ترجمة : بشير زهدي

إن عنوان هذه الدراسة يذكر بشكل محدد جداً المصادر الأثرية، باستثناء المصادر الأخرى، وإن يكن القصد منه تاريخياً بشكل خاص. وفي الواقع لن أتحدث هنا مباشرة عن المعلومات المستنبطة من قبل تلك الكتابات، لأنها عولجت في مطبوعة هذه الندوة من قبل د. أبو عساف للكتابات الصفائية، ومن قبل د. موريس سارتر للكتابات اليونانية واللاتينية ولكنني آمل في إقامة موازنة عما هو معروف في علم الآثار وذلك حول القضايا المطروحة علينا في مثل هذه البحوث. وسأعتمد بالطبع على الوثائق المنشورة قديماً بشكل خاص والتي تضم نتائج عدة بحوث أسهمت فيها في السنوات الأخيرة مثل: (سجل البيوت القديمة في حوران وجبل العرب)، (دراسة مفصلة عن قرية الدياثة القديمة في شرقي الجبل)، (حفرية كاملة لمجموعة بيوت من القرن الأول والثاني والثالث بعد الميلاد في سيع من قنوات). وبهذه المناسبة يسرني أن أشكر المديرية العامة للآثار والمتاحف على دعوتها للاسهام في هذه الندوة ودعمها الكبير وتعاونها مع الآثاريين منذ سنين...

سيقتصر بحثي هنا على العصر الروماني: أي من القرن الأول الميلادي الذي يمكن تسميته بالعصر النبطي (برغم أن هذا التعريف أو التحديد غير كاف)، أو تسميته بعصر ما قبل الرومان وحتى القرن الرابع الميلادي. لماذا؟ لأنه العصر الوحيد من المرحلة اليونانية ـ الرومانية التي نبدأ فيها بتلمس معطيات أكيدة لما نطرحه في بحثنا وفي الواقع فإن المعطيات في العصر الهلنستي، تنقصنا تماماً ولكن واعتباراً من القرن الخامس والسادس والسابع تظهر الكتابات حياة فعالة جداً حيث عثر في أحد البيوت النادرة على تأريخ جيد لإشادته وذلك في عام ٥٧٨م في الهيات)، وتنقصنا أيضاً التنقيبات التي تقدم تاريخاً أكيداً، إضافة لنقص الزخرفة المعمارية التي يمكن أن تسمح بتأريخ البيوت. ولنشر هنا إلى الاختلاف الكبير مع (الكتلة الجيرية) في سورية الشمالية، حيث يبدو أن العصر الكبير لتطور فن الزخرفة هو العصر البيزنطي. أما في سورية الجنوبية، فيوجد انقطاع في المعطيات فيما بين القرنين الرابع الخامس. إن القضية هي قضية الانقطاع في القرن الثالث للميلاد. وإن حالة الوثائق فقط هي التي قادتني إلى التقيد بين القرن الأول والقرن الرابع.

ومن جهة أخرى لن أتحدث هنا إلا عن جبل حوران وضواحيه مباشرة، وليس عن كل حوران. ويجب أن أوضح أنَّه لمجمل حوران الرومانية وحدة قوية جداً: عمارة من البازلت، نفس طرز بيوت الدياثة في الشرق حتى الجولان في الغرب، وبدون شك نفس السكان مع تنوعات محلية، الانتساب أخيراً، على الأقل في القرن الرابع إلى نفس الولاية الرومانية العربية. ولكن من جهة أخرى، فإن الجبل وضواحيه ينفرد بقوة في الزراعة، (قطاع الكروم)، وفي التنظيم (كما تظهره الكتابات) حيث التنظيم في المجتمعات القروية هو الأقوى، وأخيراً في العلاقات مع عالم السهوب. وبالإعتماد على الكتابات الصفائية نرى أن قرويي الجبل كانوا الجيران المباشرين للرعاة الذين يسمون كذلك

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

خطأ، وأخيراً فإننا نرى في الوقت الحاضر أكبر عدد من المعلومات الأثرية.

إن الواقع الأكثر وضوحاً في هذه المنطقة هو الاسكان حيث ينتظم في قرى يختلف حجمها ومظهرها عن بعضها ولكن ليس كثيراً. إن قرية (سيع) ربما كانت تضم مائة بيت، وكانت محاطة بسور نقب في بابه (ف. برايمر) ويشترك مع مختلف معابد سيع في مواصفاته. في هذه القرية نعرف من مخلفات الفخار والنقود بأنه توجد تجمعات سكنية من العصر الفارسي والهلنستي، ولكن المباني التي مازالت في مكانها تعود إلى القرن الأول وحتى الثالث الميلادي، وقد عرف الموقع القروي تهديماً نهائياً في نهاية القرن الثالث الميلادي: ترى هل كان ذلك استثناء، أم حالة دارجة في المنطقة؟ إننا لا نعرف ذلك بعد. إن قرية (دياثة) تقع في نهاية حد السهوب، في طرف وادي الشام، وتعد ١٠٥ بيوت تماماً منها عشرة بيوت من العصور الوسطى و٩٥ بيتاً قديماً، شيدت تقريباً في وقت واحد وبسرعة كبيرة ولكن في تاريخ مجهول (في القرن الثاني، أو الثالث أو الرابع). إن مخططها يظهر بأن القرية مشتركة مع حصن روماني شيد في زمنين: برج بسيط، ثم أربعة أبراج Quadriburgium كاملة يمكن تأريخها بحوالي ٣٠٠م، وإن القرية القديمة (شعارة) الواقعة في شمالي اللجاة تمثل سوراً وجزراً سكنية، ومعبدين من العصر الروماني تحولا فيما بعد إلى كنيستين ثم إلى مسجدين، حيث كان الموقع مأهولاً من نهاية العصر الهلنستي حتى العصر الأموي على الأقل.

إن هذه الأمثلة السريعة تدل على وجود ملامح مشتركة: فالقرى مؤلفة بشكل شبه وحيد من بيوت مغلقة على نفسها، تفصلها طرق أو ساحات فارغة بدون أي مخطط مسبق، ولكن يوجد أيضاً تنوع كبير فيها، حيث يختلف كثيراً تاريخ الإقامة في المواقع، ولبعض القرى وليس لمعظمها أسوار، ورغم العدد الكبير للقرى فإن معظمها يضم معابداً ولنذكر للذكرى المعابد المعروفة جيداً في عتيل، وسليم ومشنف وبريكه - في حين أن بعضها مثل دياثة ليس فيها أي مكان عبادة. وتتشابه كل المواقع القروية بامتلاكها للخزانات، وبخاصة المستودعات الكبيرة من النوع المسمى حالياً باسم (بركة)، ولكن (دياثة) التي هي عملياً خارج قطاع الأمطار، ليس لها سوى الآبار. وفي كل مكان تقريباً يمكن أن نفكر بأن للقرى تقاليد ومساكن حضرية كبيرة قبل العهد الروماني. ولكن مواقع شرقي الجبل الهامة تبدو إقامتها أحدث، ويرتبط ذلك بعاملين: من جهة: تحضر البدو (إنها نقطة تبقى مع ذلك قضية، ففي تل فريخ الواقعة شرقي دياثة، اكتشفنا تمركز عشرات من الكتابات الصفائية، في حين أنه في قرية دياثة نفسها لم نجد سوى كتابة صفائية وحيدة على حجر أعيد استخدامه...) ومن جهة أخرى: إقامة عسكرية رومانية على الطرق أشير إليها بـ Castella (Saaneh) و(دياثة) وبعدد كبير من الأبراج.. إذن هناك تنظيم للقرى وهذا ليس بخاصية رومانية، إنها خاصية محلية، ولها مثليها في سورية الشمالية، وفي مناطق أخرى من العالم الروماني. ولكن ألا توجد مظاهر أخرى أيضاً: مثل المساكن المتباعدة ذات الطابع الروماني في الطبيعة وتنظيم الأراضي؟ إن هذه النقطة ما زالت غير معروفة جيداً، ولكن الجواب وبفضل البحوث الحديثة، يبدو إيجابياً. ففي شرقي بصرى مثلاً وفي قطاع (بورد) توجد على الأرض آثار Centuriation، عمودي على الطريق الرومانية من بصرى إلى صلخد، إن هذه الظاهرة: لا تلاحظ إلا في جوار المدن القديمة: بصرى، ديونيزياس، كاناثا، حيث تمتد بسعة أكثر في كل الضواحي. إن النقطة تبقى قائمة ولكن يبدو أن حالة التقسيمات البسيطة للحقول إلى أبعاد وبدون تنظيم هندسي يرتب قطاعات واسعة (في شرق وجنوبي شرقي الجبل بشكل خاص)، أو زراعات بجروف (على كل سفوح الجبل كقاعدة عامة).

أما عن تنظيم الأراضي والمساكن بطراز روماني (فيلات بالمعنى الروماني للمصطلح في جمارين وبورد) قرب المدن، فهل يوجد لدينا تقليد محلي لمنشآت متفرقة خارج القرى؟ فإننا نجد ذلك في الجبل ولكن قلما نجده في مكان آخر فالقبور متباعدة في الحقول وبعيدة عن القرى، وهكذا توجد قبور تحت الأرض وقبور برجية مؤرخة من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الثاني والثالث بعد الميلاد في الوادي بين قنوات وسيع، وقد نقب في ثلاثة من هذه القبور. وفي نفس القطاعات الجغرافية يوجد أيضاً عدد من معاصر العنب المتباعدة أيضاً ولكن أكثرها معرفة يعود الى عصر متأخر (أموي) ولكن هل يوجد عدد كبير من البيوت المتباعدة خارج القرى؟ إن ذلك علامة تأريخ للايضاح، لأنه إذا كانت هناك بيوت قديمة منعزلة

وموجودة فعلاً في الجبل (في قطاع في جنوبي سيع مثلاً)، فإن ترتيب أحجارها بدون كتل منحوتة يجعلني أشك بأن تكون من العصر الروماني.

ولنعد إذن إلى الأكثر أهمية في الموضوع، إلى القرى وبيوت تلك القرى. لنجد أن معظمها يعود إلى نموذج وحيد فكل بيت يتألف من غرفة كبيرة وعالية، سقفها محمول بقوس. وخلف هذه الغرفة وعلى جهة أو جهتين منها غرف منخفضة ضيقة ومتراكبة فوق بعضها. وغالباً ما تكون الزرائب في الطابق الأرضي وبترتيبها فوق بعضها في أغلب الأحيان فإن ذلك يهيئ طابقاً للسكن، أو بجعلها بعضها جانب بعض تتكرر على عدة جهات من الباحة، مما يمكن أن يعطي بيوتاً كبيرة جداً. وهذه البيوت كثيرة النماذج. وقد أشار د. البني في محاضرته بالنسبة للبيوت القديمة في ذاكير في طرف اللجاة، وهي نموذج للبيوت وعمارتها في حوران.

هل كانت تلك البيوت كلها نفس الشيء؟ للاجابة على هذا السؤال علينا أن نترك الارتفاعات المختلفة، ولنلاحظ تنوعات نوعية تقنية البناء. إنها تفسر بثلاث طرق:

أولاً: هناك لاختلافات من قرية إلى أخرى. ففي (دياثة) مثلاً، في طرف السهوب بيوت صغيرة، وغالباً ما تكون بدون أقواس (اذن غرف صغيرة) وبترتيب أحجار خشنة. وفي جمارين بالعكس، في أراضي خصبة شمالي بصرى بيت واسع فخم، له واجهة مفتوحة بسعة. هل يجب أن نقابل القرى الفقيرة في شرقي الجبل بقرى غنية في غربي الجبل؟ ليس تماماً. وفي الواقع يجب أن نترك جانباً (دياثة) كحالة مفرطة، ولنقابل قرى قطاع الجبل ببيوت متوسطة بقرى غربي النقرة والجولان بتلك القرى المتميزة ببيوت غنية إلى أقصى حد (نوى، كفر شمس)، ربما كان هنا اختلاف اقتصادي بين قطاع زراعة الكروم المتوسطة، وقطاع زراعة الحبوب على محاور اقتصادية أكثر أهمية، إلاّ أنّ منطقة السويداء بحد ذاتها كانت متجانسة جداً.

ثانياً: إن داخل القرية أحياناً، كما في بريكه (الواقعة جنوبي اللجاة)، يمكننا ملاحظة التعارض بين بيوت الأغنياء المبنية بانتظام بترتيب أحجار جيدة، وبيوت بعمارة أكثر اختصاراً: ترتيب أحجار غير منتظم، فتحات قليلة في الواجهة، لاوجود للأروقة فيها، وفي الواقع فإن هذا التعارض الاجتماعي داخل نفس القرية يبدو نادراً: في (سيع) كما في (دياثة)، إن البيوت تشبه بعضها بعضاً، وإن هذا التلاحم الاجتماعي قد بُرهن عليه علاوة على ذلك في (دياثة) بدراسة المدافن: حيث نجد أن القبور شبه الأرضية لا يختلف بعضها عن بعض إلا من خلال أبعادها.

ثالثاً: هناك النقطة الأكثر أهمية، حيث توجد تنوعات في الزمن: إن الحفريات في مجموعة بيوت (سيعّ) قد أتاحت المتابعة ابتداءً من نواة أصلية. ثم من بيت ثان وملحقاته المتتابعة. وإن إبراز ثلاثة بيوت متوسطة ومشتركة تطل على نفس الطريق المغلق. وبالتبسيط، لدينا في القرن الأول الميلادي بيوت بغرف وحيدة أو غير متصلة وبدون نوافذ، وبترتيب أحجار غير منتظم ولها سقوف تحملها دعائم. ولكن ومنذ القرن الثاني والثالث الميلاديين نجد غرفاً كبيرة مشتركة مع غيرها، بترتيب أحجار منتظم. ولها سقوف تحملها أقواس ومجهزة أحياناً بكهوف تحفظ الجرار الكبيرة.

وإذا كان مثال (سيع) من الممكن تعميمه، فإننا نستطيع اذن منذ الآن أن نعارض البيوت الرومانية ذات الغرف الكبيرة الأبعاد، ولها أقواس وغالباً بأروقة، مع بيوت ما قبل العصر الروماني ذات الدعائم، كما يشاهد بعدها نموذج هام، شبه سالم ولكنه غير منقب فيه وذلك في سور اللجاة. ويبقى علينا أن نفهم كيف تم هذا التجديد المعماري (تقليد العمارة المدنية، أو العمارة الفخمة المحلية)، وكيف يميز عند عدم وجود تنقيب بين بيوت العصر البرونزي الوسيط أو الحديث، والعصر الحديدي والعصر الهلنستي في القرن الأول الميلادي.

إن الانقطاع في السكن من مميزات وطبائع العهد الروماني، ولكن هل نجد هذا الانقطاع في ميادين أخرى؟ مثلاً نجد التبادل الإقتصادي والإنتاج الزراعي قليل جداً ولنأخذ حالة التبادلات، اعتماداً على حفرية بيوت (سيع)، فقد عثر على قليل من النقود (عشرين نقداً في اثنتي عشرة غرفة اجمالاً) من القرن الأول والثاني والثالث. وإن الفخار كثير جداً وهو بنسبة ٩٥٪ من القرن الأول ومماثل لما عثر عليه في القرن الثالث، وهو عبارة عن فخار محلي أحمر، وغالباً ما يكون مصقول المركز وهذه خاصة بدائية تماماً. إن الفخار

المستورد قليل جداً، وقد عثر على بعض كسرات نبطية ثم بعض كسرات فخارية حمراء أو فخار مطلي بطلاء زجاجي أخضر من العالم الفرثي. وتتضمن الأدوات المنزلية بشكل أساسي عدداً كبيراً من القوالب البازلتية المصنوعة للطحن وذلك إما مكانياً أو في حدود المنطقة، ونستنتج من ذلك عملياً أنه ليست هناك أشياء مستوردة. إذاً ما هي الصادرات خارج الأسواق المحلية؟ لا نعرف عن ذلك أي شيء. ولنتحفظ في القول بعدم وجودها. فقد وجدت في بلاد (الغال/فرانسا)، وفي (تريفو) وجدنا أن سورياً أصله من قرية (عتيل) كان قد أقام هناك ومارس تجارة كبيرة وذلك في القرن الثالث الميلادي.

إن من يقل (صادرات) يقل (انتاجاً). فهل بدل التطبيع الروماني الإنتاج كثيراً؟ بدون شك لا. فقد عثرنا في القرن الأول كما في القرن الثالث والقرن الرابع على انتاج للفخار المحلي. وهو مستقر جداً في وادي بين (سيع) و (قنوات) بشكل خاص. ولكن الإنتاج بشكل خاص زراعيٌّ بشكل واضح. أما فيما يتعلق بالتقنيات الممارسة، فيجب طرح مشكلة الري في حالة وحيدة، حالة (دياثة)، حيث يعرف بالتأكيد بأنه كانت توجد شبكة ري للحقول: وهذا ليس مدهشاً، لأنه لا مطر عملياً هناك ومن جهة أخرى فقد أظهرت بعض الكتابات اليونانية المعروفة منذ مدة طويلة (مثل مكتشفات السيد ف. برايمر الحديثة) بأنه كانت توجد طرق هامة لجر المياه. ولكن هل كانت تستخدم في الري النموذجي أو بشكل خاص هل كانت تموِّن المدن وخزانات القرى. هذا ما يحتاج لتحديده بشكل أفضل.

ومهما يكن الأمر، فإن العصر الروماني ليس في هذا الميدان عصر التغير الأساسي. ومن جهة أخرى، فإن الفعالية الزراعية ذاتها هي حالياً معروفة جيداً، وذلك من نتائج حفرية (سيع) بشكل خاص، ولا يبدو أنها قد تغيرت بوضوح بين القرن الأول والثالث والرابع: فقد كان الناتج الأساسي للمنطقة العنب، ومنه وجد النبيذ والزبيب. وإن معظم ما عثر عليه في بيوت (سيع) الزراعية هو بذور العنب أو حبات العنب المتفحمة، وفي كهف كبير عثرنا على جرار كبيرة ربما كانت مخصصة لحفظ النبيذ. وكانت المعاصر بالضرورة عديدة في العصر الروماني، حتى التي أمكن التنقيب عنها حتى الآن تبدو مؤرخة في القرن السابع الميلادي. وذكرنا أعلاه قوالب للطحين، إذ كان يستخدم القمح. وإن زراعة الزيتون وانتاج الزيت يمكن أن يكون غير موجود في كل منطقة الجبل ولم أكتشف في الوقت الحاضر سوى مدقتين مستديرتين للزيتون، إحداهما في قنوات، والأخرى في عاصم في اللجاة، وسيكون هذا اختلافاً كبيراً مع الجولان، وشرقي الأردن، والكتلة الكلسية في سورية الشمالية. وهو اختلاف لا يمكن تفسيره بعوامل طبيعية إلا بالنسبة إلى أراضي الجبل. وأخيراً فإنه في كل البيوت وبخاصة في (سيع) في القرن الثاني والثالث كانت توجد مئات المعالف للحيوانات في الزرائب مما يدل على تربية الخراف والماعز التي تم البرهان عليها من خلال دراسة بقايا حيوانات حفرية (سيع) وكانت تربية الحيوانات الكبيرة (الأبقار، الخيول، الحمير) في هذه القرية وفي كل القرى المجاورة.

وبالإجمال فقد تكونت لدينا صورة منطقة بخصائص معبرة ومستقرة جداً ـ كإنتاج العنب وتربية الحيوانات الكبيرة، وبدون شك استيراد الزيت أيضاً. إضافة لقليل من التنوع الزراعي وطراز العمارة ـ والتي كانت حياتها تبدو متغيرة بالتطبيع الروماني في بعض الميادين (عمارة بيوت وتقسيم الأراضي) وأقل كثيراً من غيرها (كتنظيم القرى، والانتاج، والتبادلات بخاصة محلية). وباختصار كانت سيطرة المدن على الأرياف، التي كانت احدى الخصائص الأساسية للعالم الروماني، لها هنا كما في قطاعات أخرى في سورية كثيراً من السوء.